العدوى

في

السنة المطهرة والحقائق العلمية

بقلم
دكتور (وطبيب)
عبد الرحمن عبد الله الرفاعى
مدرس الحديث الشريف وعلومه
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين القاهرة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خلق الانسان من علق ، وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، فهداه النجدين ، وخلق له ما في الأرض جميعا ، وأكرمه ونعمه فجعله خليفة له سبحانه .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وصحبه اصطفاه الله على العالمين ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، فقد أوحى اليه الكتاب والحكمة ، فيهما من أسرار الكون المرئى والخفى ما لا يدركه الا نبى ، لأنه فصل وبين أحوال ما وراء المادة ، مما هو فوق مستوى الجوارح الانسانية ، والتصورات العقلية ، والخطرات النفسية ، لأنه من لدن حكيم عليم ، الذى خلق الأكوان على عينه ، ووضع قوانينها وقدرها ، فهى قائمة به ، محفوظة بارادته ومشيئته .

أما بعد :

فهذا بحث عملى فى (العدوى) ، ما هى ؟ وماذا ورد فيها من الكتاب والسنة ؟ وما هى كلمة العلم فيها ؟

ويحسن بنا أولا أن نعرف العدوى ، فى اللسان العربى .

أولا : « العدوى : هى الفساد والاعداء كاعداء الجرب .

وأعداه الداء يعديه اعداء : جاوز غيره اليه .

وقيل : هو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء .

وأعداه من علته وخلقه وأعداه به : جوزه اليه .

والاسم من كل ذلك : العدوى .

والعدوى : أن يكون ببعير جرب مثلا فتتقى مخالطته بابل أخرى حذارا أن يتعدى ما به من الجرب اليها فيصيبها ما أصابه .

وقال الأزهـرى : العدوى أن يكون ببعير جـرب أو بانسـان جذام ، أو برص فتتقى مخالطته أو مؤاكلته حذارا أن يعـدوه ما به اليك ، أى يجاوزه فيصيبك مثـل ما أصـابه .

ويقال : ان الجـرب ليعدى ، أى يجـاوز ذا الجـرب الى من قاربه حتى يجـرب .

والعـدوى : اسم من أعـدى يعدى فهو معد ، ومعنى أعـدى : أى أجاز الجـرب الذى به الى غيره ، أو أجاز جـربا بغيره اليـه . وأصله من عدا يعدو : اذا جاوز الحد .

وتعـادى القوم : أى أصاب هـذا مثـل داء هـذا » .

لسـان العـرب : ٤/٢٨٥٠ ، مادة : عدا .

فالعـدوى اذن حقيقة لغـوية .

وقد تناولت السنة المطهـرة هـذا الموضوع ، بالبيـان المستفيض والتوضيح المفيد ، وأحاطت به من جميـع جوانبه ، بحيث لا يخرج عن منهجها فيـه ، قديم ولا جديد ، من عـلوم الأوائل والأواخـر .

والنـاظر فى الأحاديث الشـريفة سوف يجد أن هناك طـائفة من الأحاديث تقـر العدوى وتثبتها ، وطائفة أخـرى تنفى العدوى ، مما قد يوقع الباحث فى وهم التعـارض الحقيقى بين الأحاديث ، ولاسيما أن كلا الطائفتين من صحيح الحديث ، بل قد تروى هـذه وتلك عن صحابى واحد ، وفى مصنف صحيح واحد .

وهـذا ليس بدعا فى السنة الشـريفة بل هو موجـود بكثرة كاثرة ، حتى ان المحدثين وضعوا لذلك بابا فى علوم الحديث .

فقد قالوا ان الحديث المقبـول أن سلم من معارضـة حديث آخـر يناقضه فى المعنى فهو المحكم ، وأمثلته كثيرة منها حديث (انما الأعمال بالنيـات)

فان عورض الحديث بمثله فاما أن يمكن الجمع بينهما ، أولا ، فان أمكن الجمع بينهما بدون تعسف فهو مختلف الحديث ، واختلاف الحديث علم جليل كان الشافعى رحمه الله تعالى أول من ألف فيه وأفاض فى مسائله .

وتدخل أحاديث العدوى فى هذا النوع من اختلاف الحديث ، فان الجمع بينها ممكن بدون تعسف ، بل ان ظاهر الأمر : الخلاف ، وحقيقته : الصواب والحكمة .

وقد يرجح الحديث لنسخه للآخر ، أو لكون راوى الحديث هو صاحب الواقعة التى ورد فيها الحديث ، أو قد يرجح الحديث للاحتياط ، أو استصحابا للأصل .

ولنبدأ بعرض الأحاديث التى تثبت العدوى :

١ - روى البخارى فى الطب / لاهامة : ٢٥١/١٠ ، حديث رقم ٥٧٧٠ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « لا يوردن ممرض على مصح » .

والمرض : هو الذى له ابل مرضى ، وهو اسم فاعل من أمرض الرجل اذا أصاب ماشيته مرض ، والمصح اسم فاعل من أصح اذا أصاب ماشيته عاهة ثم ذهب عنها وصحت .

ثم رواه فى باب : لا عدوى ، حديث رقم ٥٧٧٢ بلفظ : (لا توردوا الممرض على المصح) .

ورواه مسلم فى السلام / لا عدوى ولا طيرة : ١٧٤٣/٤٠٠٠ ، حديث رقم ٢٢٢١ بنحو هذا اللفظ عن أبى هريرة .

٢ - روى مسلم فى السلام / اجتناب المجذوم ونحوه : ١٧٥٢/٤ ،

حديث رقم ٢٢٣١ عن عمـرو بن الشريد عن أبيه قال : كان فى وفد ثقيف رجـل مجذوم ، فأرسـل اليـه النبى ﷺ : (انا قد بايعنـاك فارجـع) .

وأخرجه أحمد فى مسنده : ٣٨٩/٤ ، ٣٩٠ عن عمـرو بن الشريد عن أبيـه قال : قدم على النبى ﷺ رجـل مجذوم من ثقيف ليبايعه فأتيت النبى ﷺ ، فذكـرت ذلك له ، فقال ائتـه فأخبره أنى قد بايعتـه فليرجـع .

وكذا أخرجه ابن ماجه فى الطب / الجذام : ١١٧٢/٢ ، حديث ٣٥٤٤ عنـه ، بمثـله كما أخرجه فى الجهاد ، وأخرجه النسـائى فى البيعـة / بيعـة من به عاهة .

٣ - أخرجه البخارى فى الطب / ما يذكـر فى الطاعون : ١٨٩/١٠ ، حديث رقم ٥٧٢٩ عن عبد الله بن عبـاس (أن عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه خـرج الى الشـام ، حتى اذا كان بسرغ ، لقيـه أمـراء الأجناد - أبو عبيدة بن الجراح وأصـحابه - فأخبروه أن الوباء قد وقـع بأرض الشـام ، قال عبد الله بن عباس : فقال عمر : ادع لى المهاجرين الأولين ، فدعـاهم ، فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقـع فى الشـام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم قد خرجنا لأمـر ولا نرى أن نرجـع عنـه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس ، وأصحاب رسـول الله ﷺ ، ولا نرى أن تقدمهم على هـذا الوباء . فقال : ارتفعـوا عنى . ثم قال : ادعوا لى الأنصـار ، فدعوتهم ، فاستشارهم ، فسلكوا سبيـل المهاجرين ، واختلفوا كاختـلافهم . فقال : ارتفعوا عنى . ثم قال : ادع لى من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجـرة الفتح ، فدعـوتهم ، فلم يختلف منهم عليـه رجلان . فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ، ولا تقدمهم على هـذا

الوباء ، فنادى عمر فى الناس : انى مصبح على ظهر ، فاصبحوا عليه . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرار من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله الى قدر الله ، أرأيت ان كانت لك ابل ، هبطت واديا له عدوتان : احداهما خصيبة ، والأخرى جدبة ، أليس ان رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله ، وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبد الرحمن ابن عوف - وكان متغيبا فى بعض حاجته - فقال : ان عندى فى هذا علما ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه) . قال فحمد الله عمر ، ثم انصرف .

كما أخرجه فى الحيل / ما يكره من الاحتيال فى الفرار من الطاعون : ٣٦٠/١٢ ، حديث رقم ٦٩٧٣ عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، بمثل لفظ المرفوع .

وقد أخرجه مسلم فى السلام / الطاعون والطيرة والكهانة : ١٧٤٠/٤ ، حديث رقم ٢٢١٩ ، مثله ، عن ابن عباس ، وعن عبد الله بن عامر .

قال ابن حجر فى تفسيره : (سرغ : مدينة بالشام افتتحها أبو عبيدة ،) وقال : « والمراد بالأجناد هنا : مدن الشام الخمس وهى فلسطين ، والأردن ودمشق ، وحمص ، وقنسرين ، وكان عليها خالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ، وأبو عبيدة .

قال الخليل : الوباء هو الطاعون وهو كل مرض عام يحدث للكثير من الناس فى جهة من الأرض دون سائر الجهات ، ويكون مخالفا للمعتاد من أمراض الناس فى الكثرة وغيرها ، ويكون

مرضهم نوعا واحدا ، بخلاف سائر الأوقات فان أمراضهم فيها مختلفة . قالوا : وكل طاعون وباء ، وليس كل وباء طاعون . والوباء الذى وقع فى الشام فى زمان عمر كان طاعونا ، وهو طاعون عمواس ، وهى قرية معروفة بالشام .

وقال الغزالى : هو انتفاخ جميع البدن من الدم ، مع الحمى ، أو انصباب الدم الى بعض الأطراف فينتفخ ويحمر ، وقد يذهب ذلك العضو .

وقال النووى فى تهذيبه : هو بثر وورم مؤلم جدا ، يخرج مع لهب ، ويسود ما حواليه ، أو يخضر ، أو يحمر حمرة شديدة بنفسجية كدرة ، ويحصل معه خفقان وقىء ، ويخرج غالبا فى المراق والآباط وقد يخرج فى الأيدى والأصابع وسائر الجسد .

وقال جماعة من الأطباء منهم أبو على بن سينا : الطاعون مادة سمية تحدث ورما قتالا يحدث فى المواضع الرخوة والمغابن من البدن ، وغالبا ما تكون تحت الابط ، أو خلف الأذن ، أو عند الأرنبة ، وهذا يحدث فسادا فىالد م، يفسد العضو ، ويغير ما يليه ، ويصل الى القلب ، وينتج منه القىء والغثيان ، والغشى ، والخفقان » .

وقال :

« قوله (من مشيخة قريش) : ضبط (مشيخة) بفتح الميم والتحتانية بينهما معجمة ساكنة ، وبفتح الميم وكسر المعجمة وسكون التحتانية : جمع شيخ ، ويجمع أيضا على شيوخ ، بالضم ، والكسر ، وأشياخ ، وشيخة بكسر ثم فتح ، وشيخان بكسر ثم سكون ..

(لمهاجرة الفتح) : أى الذين هاجروا الى المدينة عام الفتح .

(له عدوتان) : بضم العين ، وبكسرها ، وسكون الدال تثنية عدوة وهو المكان المرتفع من الوادى وهو شاطئه » .

وقال : « قالوا يحرم الخروج من أرض الطاعون لظاهر النهى الثابت فى الأحاديث ، وهذا هو الراجح عند الشافعية وغيرهم ، ويؤيده ثبوت الوعيد على ذلك : فأخرج أحمد ، وابن خزيمة من حديث عائشة مرفوعا فى أثناء حديث بسند حسن (قلت يا رسول الله فما الطاعون ؟ قال : غدة كغدة الابل ، المقيم فيها كالشهيد ، والفار منها كالفار من الزحف) » .

وقال : « قال الغزالى : الهواء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن ، بل من حيث دوام الاستنشاق ، فيصل الى القلب والرئة فيؤثر فى الباطن ولا يظهر على الظاهر الا بعد التأثير فى الباطن ، فالخارج من البلد الذى يقع به لا يخلص غالبا مما استحكم به ، وقد قال الأطباء ان المكان الذى يقع به الوباء تتكيف أمزجة أهله بهواء تلك البقعة وتألفها ، وتصير لهم كالأهوية الصحيحة لغيرهم ، فلو انتقلوا الى الأماكن الصحيحة لم يوافقهم ، بل ربما اذا استنشقوا هواءها استصحب معه الى القلب من الأبخرة الرديئة التى حصل تكيف بدنه بها فأفسدته » .

انتهى ملخصا من فتح البارى بتصرف .

والجذام ، والطاعون من الأمراض التى لها ميكروبات تنتقل من طريق الهواء أو بعض الحشرات كالبراغيث ـ الى الانسان فتسبب له هذه الأمراض ، وقد تتسع منطقة العدوى بين الناس

حتى تصير وباء أقليميا أو عالميا Pandemic كما حدث فى وباء الانفلونزا فى بعض السنين .

وقد أخرج الامام مسلم فى الباب جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، منها حديث الطاعون السابق عن أسامة بن زيد ، بمثله .

٤ - أخرج أبو داود فى الطب / الطيرة والخط : ٢٥٢/١٦ عن فروة ابن مسيك (قال : قلت يا رسول الله أرض عندنا يقال لها أرض أبين ، هى أرض ريفنا وميرتنا ، وانها وبئة ، أو قال : وباؤها شديد . فقال النبى ﷺ دعها عنك فان من القرف التلف) .

واسم الأرض هو هذا ، وقوله : ريفنا أى زرعنا ، وميرتنا : أى طعامنا . وبئة : أى كثيرة الوباء ،والقرف : مقارفة الداء أى ملابسته وملاقاته .

وهذا الحديث مما سكت عنه أبو داود ، فهو حسن ، وقد أخرجه أحمد فى مسنده : ٤٥١/٣ عن فروة ، بنحو لفظه .

٥ - أخرج البخارى فى الطب / الجذام : ١٦٧/١٠ ، حديث رقم ٥٧٠٧ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر ، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد) .

والطيرة : بكسر الطاء وفتح المثناة تحت وقد تسكن ، هى التشاؤم بالشىء وكان يصدهم عن مقاصدهم .

وروى أبو داود فى الطب / الطيرة والخط : ٢٤٦/١٦ ، عن محمد بن راشد الكحول أنه قال : كانت الجاهلية تقول ليس أحد يموت فيدفن الا خرج من قبره هامة . قلت فقوله صفر ، قال : سمعنا أن أهل الجاهلية يستشئمون بصفر ، فقال النبى ﷺ :

لا صفر ، قال محمد : وقد سمعنا من يقول هو وجع يأخذ فى البطن ، فكانوا يقولون هو يعدى ، فقال : لا صفر .

وروى بعده عن عطاء قال: الهامة التى تصرخ هامة الناس ، وليست بهامة الانسان : انما هى دابة (أى البومة وكانوا يتشائمون بها) .

وقد قال الحافظ بن حجر فى الفتح :

« اختلفت الآثار فى المجذوم ، فذهب جماعة الى الأكل مع المصاب به ورأوا أن الأمر باجتنابه منسوخ ، والصحيح الذى عليه الأكثر ويتعين المصير اليه أن لا نسخ ، بل يجب الجمع بين الحديثين ، وحمل الأمر باجتنابه والفرار منه على الاستحباب والاحتياط ، والأكل معه على بيان الجواز » .

وقال : (ان المراد بنفى العدوى أن شيئا لا يعدى بطبعه نفيا لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تعدى بطبعها من غير اضافة الى الله ، فأبطل النبى ﷺ اعتقادهم ذلك ، وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله هو الذى يمرض ويشفى ، ونهاهم عن الدنو منه ليبين لهم أن هذا من الأسباب التى أجرى الله العادة بأنها تفضى الى مسبباتها ففى نهيه اثبات الأسباب ، وفى فعله اشارة الى أنها لاتستقل ، بل الله هو الذى ان شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئا ، وان شاء أبقاها فأثرت . قال البيهقى : وأما ما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : (لا عدوى) فهو على الوجه الذى كانوا يعتقدونه فى الجاهلية من اضافة الفعل الى غير الله تعالى . وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شىء من هذه العيوب سببا لحدوث ذلك ، ولهذا قال ﷺ : (فر من المجذوم فرارك من الأسد) ، وقال : (لا يورد ممرض على مصح) وقال فى

الطاعون : (من سمع به بأرض فلا يقدم عليه) وكل ذلك بتقدير الله تعالى . وتبعه على ذلك ابن الصلاح فى الجمع بين الحديثين .

(قال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة : ويمكن الجمع بين فعله ﷺ وقوله ، بأن القول هو المشروع من أجل ضعف المخاطبين ، وفعله حقيقة الايمان ، فمن فعل الأول أصاب السنة ، ومن فعل الثانى كان أقوى يقينا لأن الأشياء كلها لا تأثير لها الا بمقتضى ارادة الله تعالى وتقديره ، كما قال تعالى : « **وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله** ») انتهى .

وهذه المفاهيم من أجود ما حمل عليه معانى هذه الأحاديث ، فسوف نعرض للحقائق العلمية التى ظهرت فى هذه الأعصر ، أن الميكروبات المرضة تدخل الأجسام من الهواء ، ومن المصابين الى الأصحاء ، ولكن الأعراض المرضية قد توجد فى بعض الناس ، كما قد يسلم من الاصابة كثير من المخالطين الذين حملوا الميكروبات الضارة ، بل قد تزيدهم مناعة ، وتجعل لهم وقاية من هذا المرض أو مثيله لفترات طويلة قد تمتد طول العمر .

أما الأحاديث التى تنفى العدوى فنورد بعضها كما يلى :

١ ـ روى البخارى فى البيوع / شراء الابل الهيم أو الأجرب : ٣٧٦/٤ حديث رقم ٢٠٩٩ عن على بن عبد الله قال : حدثنا سفيان ، قال : قال عمرو ـ ابن دينار ـ : كان ها هنا رجل اسمه نواس ، وكان عنده ابل هيم ، فذهب ابن عمر رضى الله عنهما فاشترى تلك الابل من شريك له ، فجاء اليه شريكه فقال : بعنا تلك الابل ، فقال : ممن بعتها ؟ فقال من شيخ كذا وكذا ، فقال : ويحك ، ذاك والله ابن عمر . فجاءه ، فقال : ان شريكى باعك ابلا هيما ، ولم يعرفك . قال فاستقها ، قال : فلما ذهب يستاقها ، فقال : دعها ، رضينا بقضاء رسول الله ﷺ لا عدوى) .

قال فى الفتح : (الهيم جمع أهيم للمذكر ، ويقال للأنثى هيمى ، والهائم المخالف للقصد فى كل شىء ، والابل الهيم التى أصابها الهيام ، بضم الهاء وبكسرها : داء تصير منه عطشى تشرب فلا تروى .

وقيل الابل الهيم المطلية بالقطران من الجرب ، فتصير عطشى من حرارة الجرب) .

وقد قال ابن عمر رضى الله عنه لنواس : استقها أى ارتجعها حيث انها مراض ، فقد رضيت بحكم رسول الله ﷺ حيث حكم ألا عدوى .

٢ - روى البخارى فى الطب / لا صفر وهو داء يأخذ البطن : ١٠/١٨٠ رقم الحديث ٥٧١٧ ، ومسلم فى السلام / لا عدوى ولا طيرة : ٤/١٧٤٢ ، حديث رقم ٢٢٢٠ عن ابن شهاب قال أخبرنى أبو سلمة ابن عبد الرحمن وغيره أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : (أن رسول الله ﷺ قال : لا عدوى ، ولا صفر ، ولا هامة ، فقال أعرابى : يا رسول الله فما بال ابلى تكون فى الرمل كأنها الظباء ، فيأتى البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها ؟ فقال : فمن أعدى الأول) .

قال فى الفتح :

(لا صفر ، وهو داء يأخذ البطن ، وفى غريب الحديث لأبى عبيدة : هى حية تكون فى البطن تصيب الماشية والناس ، وهى أعدى من الجرب عند العرب ، فعلى هذا فالمراد بنفى الصفر ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى ، أى ليس المراد نفى ذات الصفر ، وانما نفى شىء من لوازمه وهو اعتقاد العدوى) .

وهذا الحديث قد أخرجه البخارى فى أكثر من موضع .

٣ ـ أورد البخارى بعد الحديث السابق ، وباسناده : عن أبى سلمة سمع أبا هريرة بعد يقول : (قال النبى ﷺ : لا يوردن ممرض على مصح) وأنكر أبو هريرة حديث الأول . وقلنا ألم تحدث أنه لا عدوى ؟ فرطن بالحبشية . قال أبد سلمة : فما رأيته نسى حديثا غيره .

والحقيقة أن أبا هريرة لم ينس الحديث الذى رواه البخارى ومسلم (السابق) والذى فيه اثبات العدوى :

ـ لأنه رضى الله عنه هو الراوى لأكثر أحاديث العدوى .

ـ ولما نقله صاحب الفتح من رواية يونس عن الزهرى عن أبى سلمة : (كان أبو هريرة يحدثهما كليهما عن رسول الله ﷺ ، ثم صمت أبو هريرة بعد ذلك عن قوله : (لا عدوى) .

ففى رواية يونس : فقال الحارث بن أبى ذباب وهو ابن عم أبى هريرة : قد كنت أسمعك يا أبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديث « لا عدوى » فأبى أن يعرف ذلك ،) .

ووقع عند الاسماعيلى من رواية شعيب : (فقال الحارث : « انك حدثتنا » فذكره ، قال : فأنكر أبو هريرة وغضب ، وقال : لم أحدثك ما تقول .

(قال أبو سلمة : ولعمرى لقد كان يحدثنا به ، فما أدرى أنسى أبو هريرة ، أم نسخ أحدالقولين الآخر) .

وقال صاحب الفتح : (وهذا الذى قاله أبو سلمة ظاهر فى أنه كان يعتقد أن بين الحديثين تمام التعارض ، وقد تقدم وجه الجمع بينهما فى باب الجذم ، وحاصله أن قوله (لا عدوى) نهى عن اعتقادها وقوله (لا يورد ممرض على مصح) سبب النهى عن الايراد خشية الوقوع فى اعتقاد العدوى ، أو خشية تأثير الأوهام .

قال القـرطبى فى (المفهم) : ويحتمـل أن يكون خاف اعتقـاد جاهل بظنهما متناقضين فسكت عن أحدهما ، وكان اذا أمن ذلك حدث بهما جميعـا) . انتهى كلام ابن حجـر .

ـــ ولذلك فان أمير المؤمنين الامام البخارى : فصـل الحديثين ، وهما تاليان فى تخريجهما ، واسنادهما واحد (رقما ٥٧٧٣ ، ٥٧٧٤) ربما لهذه الشبهة ، ولكن الامام مسلما جمـع الحديثين كليهما فى سنـد واحـد من طـريق يونس عن ابن شهـاب أن أبا سلمـة بن عبد الرحمن بن عوف حدثه أن رسول الله ﷺ قال : (لا عـدوى) ويحدث أن رسول الله ﷺ قال : (لا يورد مـرض على مصح) قال أبو سلمـة : كان أبو هـريرة يحدثهما كلتيهما عن رسول الله ﷺ ، ثم صمت أبو هـريرة بعد ذلك عن قوله (لا عـدوى) ، وأقام على (أن لا يورد ممـرض على مصح) ، قال : فقال الحارث بن أبى ذباب ... المقالة التى نقلناها من الفتح آنفـا .

ورواية مسـلم هـذه فى السـلام / لا عدوى ولا طيرة ولا هـامة : ١٧٤٣/٤٠٠٠ ، حديث رقم ٢٢١ ، ثم أخرج فى الباب بسنده عن أبى سلمة أنه سمع أبى هـريرة يحدث أن رسول الله ﷺ قال : (لا عـدوى) ويحدث مع ذلك (لا يورد الممرض على المصح) .

ومن هـذا يتضح أن حديثى اثبات العـدوى ونفيها مرويان عن أبى هـريرة رضى الله عنـه ، وقد سكت عن أحدهما ـ ربما ـ لشبهة التعارض الظاهر بينهما ، ولم يكن عنده تأويل ذلك .

٤ ـ روى البخارى فى الطب / لا عدوى : ٢٥٤/١٠ ، حديث رقم ٥٧٧٢ أن عبد الله بن عمـر رضى الله عنهما قال : قال رسـول الله ﷺ :

(لا عـدوى ، ولا طيرة ، انما الشـؤم فى ثلاث : فى الفـرس ، والمـرأة والدار) . وقد أخرجه مسلم في السـلام ١٧٤٧/٤ ، رقم

الحديث ٢٢٢٥ (بعده) فى باب الطيرة والفـال ... (ولفظـة مقـارب) .

وأخرجه البخارى فى الباب حديث رقم ٥٧٧٦ عن أنس رضى الله عنـه عن النبى ﷺ قـال : (لا عـدوى ، ولا طيرة ، ويعجبنى الفـأل ، قالوا وما الفـأل ؟ قال : كلمة طيبة) .

ورواه مسـلم فى السـام الباب السابق ، حديث رقم ٢٢٢٤ ، كما أخـرج فى الباب السابق ، حديث رقم ٢٢٢٢ عن جابن ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا غـول) .

ولهذا فان الحافظ ابن حجر قال فى الفتح : ١٦٩/١٠ فى تفسيره للحديث رقم ٥٧٠٧ عند البخـارى :

(فطريق الجمع بين أحاديث اثبات العدوى ، ونفيها ، أولى ، فحديث لا عـدوى ثبت من غير طـريق أبى هـريرة ، فصح عن عائشـة ، وابن عمـر ، وسعد بن أبى وقاص ، وجابر ، فلا معنى لدعوى كونه معـلولا) . وقال :

(والحاصل أن المنفى فى هذه الأحاديث ستة أشياء : العدوى ، والطيرة ، والهامة ، والصفر ، والغول ، والنوء) .

وقال :

(وليس المـراد ابطال وجود الغيلان ، وانما معنـاه ابطـال ما كانت العـرب تزعمه من تلون الغول بالصـور المختلفة ، قالوا والمعنى لا يستطيع الغول أن يضـل أحدا ، ويؤيده حديث (اذا تغولت الغيـلان فنادوا بالأذان) أى ادفعوا شـرها بذكـر الله ، وفى حديث أبى أيوب عند قوله : (كانت لى سهوة فيهـا تمـر ، فكانت الغول تجىء فتأكل منـه) ، وأما النـوء : فقد كانوا يقولون مطـرنا بنوء كذا) فأبطـل النبى ﷺ ، بان المطـر انما يقع باذن

الله لا بفعل الكواكب ، وان كانت العادة جرت بوقوع المطر فى ذلك الوقت ، لكن بارادة الله تعالى وتقديره ، لا صنع للكواكب فى ذلك) .

ويشير الحافظ بذلك الى أن المنفى فى أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ قد يكون ذات الشىء بمعنى أنه لا وجود لهذا الأمر كالهامة ، والصفر وقد يتوجه النفى الى شىء يتعلق بالمسمى ويليق بالنفى ، كالحسد والنوء ، فان الحسد ثابت من الشرع بقوله تعالى : (**ومن شر حاسد اذا حسد**) ، وقد ورد نفيه فى بعض الأحاديث .

والنوء موجود ، ويكون النفى متوجها الى اعتقاد كونه هو السبب الفاعل بذاته فى نزول المطر .

ونخلص من هذا كله الى أن رأى جمهرة المحدثين : هو أن جميع هذه الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى اثباتا ونفيا صحيحة ، وأنه لا نسخ لبعضها للآخر ، كما أن اعمالها جمعا هو الرأى المختار ، وذلك لأنه يمكن - بدون تعسف - استخراج الأحكام منها مع جمعها فى معنى متفق لا تناقض فيه ولا تباعد .

لنذهب بعض هذا العرض الى ما تقرر فى العلم التجريبى المعملى والاكلينيكى (ونعنى بهذا المصطلح الطب الوقائى والعلاجى) ، لتزداد رؤيتنا وضوحا لمعانى الأحاديث الشريفة التى وردت فى هذا الباب .

ولن نتعسف فى التأويل ، أو نتحيز الى جهة ، وانما سنعرض الحقائق مجردة ، وسوف يكون الحكم الحر المطلق للمطلع على هذه الحقائق هو الاختيار الذاتى والمنطقى له .

أولا : العدوى حقيقة طبية ، وقد اتضح هذا بعد اختراع المجهر ، والوقوف على مسببات كثير من الأمراض ، حيث وجد أنه فى الأمراض

المعدية توجد كائنات لطيفة لا ترى الا بالمجاهير المكبرة (قد تصل قدرتها التكبيرية الى أكثر من مليون حجم) ـ هذه الكائنات توجد فى دماء المرضى وأمصالهم ، وتسمى هذه الكائنات الدقيقة بالطفيليات ، والميكروبات ، والفيروسات .

ولكن مرض فصيلة معينة من هذه الكائنات لها صفاتها ، وطرق حياتها الخاصة بها ، وتظهر على المصاب بها أعراض خاصة ، وتكون هذه الأعراض متحدة تقريبا فى كل المصابين بها .

وللتأكد من هذه الحقيقة فقد توصل العلماء الى هذه النظرية والمسماة بفروض كوخ Kock's Postulates

فما هى أسس هذه النظرية ؟

- أولا يسحب من المصاب بالتيفود (مثلا) كمية من دمه عن طريق الفصد (بالحقنة) .
- يفحص هذا الدم بالمجهر ليتأكد أن به ميكروبات التيفويد .
- يحقن هذا الدم المحتوى على الميكروب ، فى حيوان صحيح ، فتظهر العلامات المرضية الخاصة بالتيفويد على هذا الحيوان الصحيح .
- يسحب بعض الدم من هذا الحيوان ، فيوجد أنه يحتوى على عدد هائل من هذا النوع من الميكروبات .

ومن هذا ثبت وتأكد أن الأمراض المعدية تسببها أحياء دقيقة خاصة لكل مرض ، وهذه حقيقة علمية .

ثانيا : بالنظر الى الواقع، فاننا نجد أن العدوى تنتقل الى الأصحاء بغير هذه الطريق (أي بغير طريق حقن الدماء) ، فما هي هذه الطرق ؟

تنتقـل عن طريق الفم ، من خلال الطعام ، والشـراب ، والأوانى الملوثة بهذه الكائنات اللطيفـة .

كما تنتقـل عن طريق الأنف ، منخلال هواء الاستنشاق والذى قد يكون محتويا على كثير منهـا ، كميكروب السـل ، وفيروس الانفلونزا .

وتنتقل عن طريق الجلد بالملامسة ، وارتداء ملابس وأحذية المصابين كالتينيـا ، والجـرب ، والزهـرى .

وتعمـل الحشرات كالذباب ، والبعوض ، والبراغيث ، والقمـل ، والبق وبعض الحيوانات : كالقطط ، والكلاب ، والمـاشية ـ تعمل هـذه وتلك على نقل الكائنات المرضية الى الأصحاء عن طريق الملامسة أو الحقن فى أجسـام بعض الناس كما يحدث فى البعـوض والبراغيث ، أو عن طريق العض كما فى الكلاب .

والبكتريا : كائنات حيـة دقيقة ، بسيطة التركيب ، لا ترى الا من خلال المجاهير ، وهى عبارة عن خلية واحدة لهـا جدار رقيق ، وتحتوى بداخلهـا على مـادة البروتوبلازم ، وتوجد فيـه النواة وهى القائمـة بعمليـة التكاثر فى خـلايا البكتريا ، وتوجد فيهـا أمشـاج (حاملات) صفات الخليـة الأم . وتحاط مادة البروتوبلازم بغشاء السيتوبلازم .

وقد يكون لهذه الخليـة البكترية أسواط تسـاعد على الحـركة ، وأهداب تساعد على الالتصـاق بالأنسجة التى تعيش فيهـا ، وقد تلجـأ هـذه الخلية الدقيقة الى تكوين كبسـولة تحيط بها وتحميها من الابتلاع بواسطة خلايا الدم البيضـاء الآكلة ، كما تحميها من الجفـاف ، والحرارة عند عدم وجـود الظـروف الملائمة لنشاطها وتكاثرها ، وتسمى هـذه بالخلية المتحوصلة أو تسمى بالبذرة Spore

أما الفيروسات Viruses فهى كائنات أدق وألطف من الميكروبات ولذلك فانها تصـل الى ما لا تصـل اليـه البكتريا ، فانها تخترق جدر

خـلايا جسم الانسـان والحيوان لتعيش ، وتتكاثر داخل الخلية ، وتربك نظامها بل توظف خليـة الانسـان لنشاطها ، ويحدث هـذا كله داخل الخلية التى هاجمها الفيروس ٠

واذا كنا فى دفاعنا ضد الميكروبات نستخدم المضادات الحيوية التى تنتشـر فى بلازمـا الدم لتوهن البكتريا ، فان الفيروس يتحاشى هـذا الخطر لأنه يحتمى داخل الخليـة ٠

كما أنه فى هـذا المكان الحصـين يحتمى من خطـر خـلايا الدم البيضـاء الآكلة ، وغيرها من الأجسـام والقذائف التى يوجهها الدم الى مثـل هـذه الأحياء ٠ ويلاحظ أن جدر الفيروس سـامة للخلايا مما يساعد على اختراقه لهـا ٠

وبعضها لا يصـل الى الدم ، بل يلتصق بالأغشية المخاطية لجهـاز التنفس ، والفم ، والمهبـل ، ويقوم بنشـاطه فى هـذه الأماكن ، حيث لا تصـل اليـه المضادات الحيوية والتى تنتشـر فى الدم فقط ، ولا تصل المضادات الحيوية الى هـذه الأغشية الا بتركيزات كبيرة جدا ٠

ويسبب الفيروس أخطـر الأمراض : كالايدز AIDS ، وشـلل الأطفال ، والالتهاب الكبدى الوبائى ، والحصبة ، والحمى الصفراء ٠٠ وغيـرها ٠

ثالثـا : تقـرر علميـا أنه ليست كل فصـائل هـذه الكائنـات ـ ضـارة ، بل منها الضـار ، ومنهـا النافع الذى يفيد الانسان والحيوان ٠

كما تقـرر علميـا أنه ليس كل من يصـاب بالميكروب أو الفيروس المرضى ـ تظهـر عليـه أعراض المرض ، بل قد تكون العدوى سببا فى وقاية الانسـان أو الحيوان من المرض لفترة من حيـاته قد تمتد هـذه الوقاية والمناعة طول العمر ٠

وهـذه هى نظـرية التطعيم واللقـاح ، وذلك بحقـن الانسـان أو الحيوان الصحيح بميكروبات بعض الأمراض ، أو بسموم هذه الأحياء للوقاية من الأمراض التى تسببها ، فعند توقـع حـدوث بعض الأوبئـة كالكوليرا ، والتدرن الرئوى ، والحمى الشوكية ، والحصبة ، والجدرى فان المـراكز الطبية تقوم بتطعيم الشعوب لتنبيـه أجسـامهم لعمل مناعة ذاتية تصـد هجوم هـذه الميكروبات والفيروسات ، وذلك عند انتشـار الوباء وامتداده من منطقة لأخـرى .

وبطريقة التطعيم وحده قضى على وباء الجدرى الذى ينتج عنـه فيروس قضى عليـه فى جميـع أنحاء العالم ، وبات العـالم نقيـا منـه حسب تقارير منظمة الصحة العالميـة .

فالكائنات الدقيقـة أنواع :

— نوع يسبب الأمراض Patholgenic ويعـزى تأثيرها المرضى الى ما تفـرزم من سموم Toxins تربك وظائف الخلايا المصابة ، وكذا مهاجمة بعضها لأجهـزة الوقاية الجسمية والمتمثـلة فى الكرات الدموية البيضـاء ، وخـلايا الليمف ، وابطـال تأثير مضـادات السموم التى تفـرز بواسطة بعض خـلايا الدم ، والعظام ، والغدد ، وهكذا تتغلب الكائنات المهاجمة ، وتظهـر أعراض المـرض على المصـاب ، ويقال انه مريض .

— ولكن هـذا النوع المرض قد يهزم بواسطة الخـلايا السابقة ويموت ويكتسح من الدم عن طـريق البـول ، والبراز ، وبهذا لا تظهـر على المصـاب به أى أعراض مرضية ، بل قد يكتسب الجسم مناعة ووقاية ضد هـذا النوع من الكائنات بحيث لا يمكن دخـول هـذا الميكروب الى الجسم ، فاذا دخل قاومته الخلايا المنـاعية والأجسام المضـادة ، والتى لديها ذاكـرة قـوية للتعـرف على نوعه ، ولو بعد عشـرات السنين ، بل قد تمتد هـذه المناعة طوال العمـر .

Immunologilol Memmory

ـــ وهنـاك نـوع من الكائنات غير ضـار ، بل هو ضـرورى لبعض العمليات الهضمية كالتى يعيش فى الفم ، والأمعـاء الغليظـة ، أو الذى يعيش فى المهبل ويعـزى له الأثر الحمضى الذى يحفظ هذا العضو من الاصـابة ببعض الفصـائل الأخـرى .

ولكن أمثـال هـذه الكائنات المعايشة ، المتكافلة Commansals قد تصبح خطـرة شرسـة لو وجدت فى مكان آخـر غير مسكنهـا الأسـاسى .

وقد تتحول الى الهجوم والضـرر فى بعض الأحوال ، كاصابة الشخص بمرض السـكر ، فان هـذم الكائنات النافعـة قد تقتـل الانسـان .

وقد تقـرر من هـذه الحقائق الطبية المجردة أنه ليس كل من يصاب بالميكروب أو الفيروس يمرض أو تظهـر عليـه علامات مرضية .

وهـذا يفسـر لنـا ما نراه من انتشـار بعض الأمـراض البكترية والفيروسية بين بعض أفـراد الأسـرة الواحدة ، والمحـلة الواحدة دون البعض الآخـر ، بل ان العـامة من الناس يقربون الأطفـال الأصحـاء من الأطفال المصـابين بالحصبة ليكسبوهم مناعة ضد الحصبة ، حيث أن هـذا يشبه تطعيم الأصحاء بفيروس المرض لتنشيط المنـاعة والمقـاومة الذاتيـة .

وانه قد يدخـل الميكروب الخطـر المرض الجسم فيحـدث توازن عجيب بينـه وبين العضو الذى حـل فيـه ، فسموم الميكروب لا تعطـل الوظائف الحيوية للعضو العائل ، ومن ناحية أخـرى فان مناعة الجسم المتمثـلة فى خـلايا الدم البيضـاء الآكلة للميكروب ، والأجسام المضـادة ـ لا تقتـل الميكروب ، وهـذا يشاهد في بعض المجتمعات كالهند التي

يكون فيهـا ميكروب الكوليرا مروضا ومتوازنا فى أجسـام العـامة من الناس ، فهو متوطن Endemic فيهـا ، بينما هو من أشرس الميكروبات لو هاجم بعض الأجناس الأخـرى .

ولابد فى هـذا الموطن من استعراض العوامل ، والأشياء التى توجد فى حـالة انتقال الكائن المرضى (بكتريا ـ فيروس ـ فطـر) من الوسط المعدى الى الجسم ، ثم انتشـاره وترسيخه فى أنسجة الشخص المصاب ، أو على الجانب الآخـر قد يهزم ويقضى عليـه ولا تظهر على المصـاب أى أعراض مرضية ، بل يترك الشخص المصـاب وقد اكتسب مناعة ووقاية ضد هـذا الكائن الغـازى ، فلا يستطيع أن يدخـل الجسم لفترة قد تطول لتشمل طول العمـر .

عوامل خاصة بالشخص المنقول اليه العدوى (العائل) :

١ ـ العـامل الذاتى أو الشخصى : Individual Factor

بعض الناس عندهم مناعة عالية ضد الأمراض ، ويعـزى هـذا الى بعض العوامل الوراثية Genetic ، وتكون جميـع القوى المقـاومة ضد الميكروبات فى أجسـامهم جيدة .

كما أنهيوجد بعض النـاس لديهم حساسية شديدة لاكتسـاب العدوى البكترية والفيروسية مهما كان الميكروب ضعيفا .

٢ ـ عـامل السن : Age Factor

لوحظ أنه فى الشخص العـادى تكون المقـاومة فى أوج نشـاطها وكفاءتها فى منتصف العمـر (الفترة من ١٦ ـ ٥٠ سنة) ولكنها تكون ضعيفة خائرة عند طـرفى العمـر ، أى فى سن الطفولة ، وقرب نهاية العمـر .

ويعـزى هـذا الاختلاف الى نضج الجهاز المنـاعى وقوته فى فترة منتصف العمـر ، فان انتاج المواد المتوسطة Interferons وهى المواد المقاتلة للفيروسات تكون ضعيفة هزيلة فى الكبار .

كما أن بعض الهرمونات والتى لهـا دور هام فى الوقاية والمنـاعة تكون قليـلة فى صغـار السن ، ولذلك فانه يلاحظ كثرة عـدوى الاناث الصغار بعدوى السيلان Gonorrhoea حيث يكون هـرمون الأنوثة Oestrogen غير موجود ، وهو الذى يبنى غشـاء المهبـل ليقـاوم اختراق البكتريا ، كما أنه يقـوم بتحميض هـذا العضـو مما يجعـله عائقـا كيماويا قاتلا للبكتريا .

أما فى البالغات فتكون طبقات غشـاء المهبل متراكمة ، وحمضية التفاعل مما يحول دون ظهـور أى ميكروب ضـار فى الأحوال العادية .

٣ ـ عـامل الجنس : Racial Factor

لقد تقـررت هـذه الحقيقةطبيا ، حيث وجد أن بعض أجنـاس البشـر يلتقطون بكتريا بعض الأمراض ، فتظهـر عليهم أعراض مرضية شديدة ، بينمـا بعض الأجناس الأخـرى لا يتأثرون بنفس الميكروب . فالعدوى الفطرية Coccidio Idomyclosis تسبب التهابا فى الأجناس السوداء Nigros بينمـا هى ليست كذلك فى الأجنـاس البيضـاء من البشـر White Races û

٣ ـ عـامل الـوراثة : Genetic Factor

بعض الأشخـاص يولدون وعنـدهم نقص فى الأجسـام المنـاعية الموروثة ، ولذلك تسهل اصابتهم بالبكتريا ، وتتفشى فيهم الأمـراض ، وتسمى هـذه الحـالة Congenital agammglopinaemoa كما أنه يوجد بعض الناس عندهم نقص فى انزيم Glucose 6- Phosphate Dihydrogenase

وهـذا يقيهم خطـر الملاريا ، حيث تقاوم الكرات الحمـراء عندهم غزو طفيل الملاريا حيث يعيش داخل هذه الخلايا .

٥ ـ العـامل الهـرمونى : Hormonal Factor

كثير من الهرمونات لهـا دور أسـاسى فى مقاومة الانسان للأمراض، فمثـلا هـرمون الكورتيزون Corticosteroids يجعـل الجسم قابلا شديدا للأمراض فى حال زيادته أو نقصـه .

ولذلك فانه عند زرع الكلى أو القلب أو العيون فانه يعطى بانتظام عقب هـذه الجراحات لتثبيط الجهـاز الوقائى والمنـاعى فى الجسم حتى لا يهاجم أو يطـرد العضو المزروع .

فالكورتيزون يثبط الأجسـام المنـاعية Antibodies والتى تقـاوم الميكروبات ، ويثبط الالتهابات Inflommatory Reaction والذى له دور عظيم فى حصـر الاصـابة الميكروبية فى منطقة محددة .

وكذلك فـانه يثبط المتوسطـات Interferons وهى التى تقـاوم الفيروسـات .

ولذلك فان بعض المصـابين بزيادة افـراز هذا الهرمون ، كما فى مرض (كوشينج) Coching's ، أو المصـابين بنقصـه كما فى مرض (أديسـون) Addison s ـ تكون مقاومتهم للبكتريا ضعيفة هزيلة .

كما أنه توجد عوامل كثيرة غير هـذه تجـل عن الحصـر ، تؤثر على العدوى ايجابا وسلبا ، قبولا وردا .

ففى بعض الاضطرابات الهضمية (الهضم والامتصاص ـ التمثيـل الغذائي) كما يحدث فى مرضى السكر ، وجد أن ارتفاع نسبة السكر فى

الأنسجة عـامة ، وفى الدم ، فان الخـلايا الدمـوية البيضـاء الآكـلة للميكروب Phagocytes تهمد وتضعف عن ابتلاع البكتريا ،وتكون النتيجة تغلب البكتريا والفيروس على المقـاومة ، ولذلك تتفشى فى هؤلاء المرضى الأدواء ، حتى ان الفطريات الضعيفة ، والبكتريا النافعـة المعايشـة فى الفـم ، والمهبـل Saprophyte ، والقـولون ـ لتتحول الى فصـائل شرسـة تؤدى الى اصـابات خطيرة وقد تقتل هذه الأنواع صاحبها ٠

وقد لوحظ أنه لأسباب غير معـلومة قد تصبح الميكروبات الضعيفة من أشرس الميكروبات فى بعض السنين ـ حتى انهـا قد تتسبب فى وجود وباء عالمى ، كما حدث مع فيروس الانفلونزا ٠

كما لوحظ أن الأشخـاص الذين تبدو عليهم عـلامات الصحـة ، والعافيـة ، وتكون تغذيتهم صحية ، ويهتمون بالنظـافة فى المـأكل ، والمشـرب ، والملبس والنظـافة والطهارة الجسمية ، ويتحركون كثيرا ، أو يمارسون بعض الرياضات الجسمية ، ويعتدلون فى الأطعمة والأشربة ، والنوم ـ هؤلاء الأشخاص تكون مقاومتهم للكائنات الضـارة من بكتريا وفيروسات ، وفطريات ، وطفيليات عالية ، ولهذا فان الأمراض والعلل تندر بينهم ٠

ولا يفوتنا عند هـذه النقطـة الى أن ننبـه الى أن الاسـلام الحنيف لم يترك بابا من هذه الأبواب الا ووضـع له المنهج الكامل الصحيح القويم من الطهارات ، وتحـريم النجاسات فى المـأكل ، والمشـارب ، والأردية وأماكن الاقامة ، حتى النفس التى هى أعمق من هذا كله قد وضـع لها النهج الصحى القويم فى الطفولة ، والشباب ، والكهولة ٠

فاذا انتقلنا الى ناحية أخـرى ، فاننا سوف نجد أنه فى الشخص الواحد توجد خطوط وقائية ودفاعية فى جسمه ، تتمثـل فى :

(أ) خطوط دفاعية تركيبية تشريحية .

(ب)ـوفسيولوجية .

(حـ) وكيميائية .

أولا : الدفاعات التركيبية ، وتتمثل فى :

١ ـ **الجلد** : فان البيئة المحيطة بالانسان والتى يعوم فيها كمن يعوم فى البحر تزدحم بآلاف الأصناف من فصائل البكتريا والفطريات والفيروسات الضارة والنافعة ، ولهذا لو ترك اللبن فانه يتخمر بفعل بعض أنواع البكتريا وهى بكتريا التخمر Yeast وكذلك العصائر ، والأشربة ، والأطعمة .

ولكن الجلد الذى يلف الانسان والحيوان ، يتكون من طبقات متراكمة تحول دون اختراق هذا الجدار الركامى بواسطة هذه الطفيليات .

وكذلك فانه يحتوى على غدد تفرز مفرزات شحمية Sebacious Secretion ومفعولها قاتل للبكتريا ، ففيه أحماض دهنية ، وأنزيمات محللة للبكتريا فيحطم الجدار الخلوى للكثير من البكتريا Lysozyme

٢ ـ الجهاز التنفسى :

وهو هدف أساسى ، وطريق رئيسى لغزو الأحياء الدقيقة عن طريق هواء الشهيق والذى يعج بآلاف الأصناف منها .

ولكن الله تعالى قد اختص هذا الجهاز بوسائل دفاعية تركيبية عظيمة .

- شعيرات فتحتى الأنف تعمل كمصفاة للبكتريا ، والغبار الذى يحتوى على بعض الكائنات المتحوصلة .

- الزوائد المخملية ، أو الأهداب فى غشاء الأنف ، والتى تعمل فى حركة دائبة لطرد هذه الأحياء .

- ما يحويه مدخل هذا الجهاز من مخاط يحتوى على مواد قاتلة للبكتريا والفيروسات .

- العطس Cough Reflex والذى يطرد كثيرا منها دفعة واحدة .

٣ - **العين :** تحتوى الدموع على أنزيم قوى Lysozyme يقتل البكتريا. كما أنها مجهزة بالجفون ، والأهداب للمحافظة والتغطية ، وكذا بالأعصاب الشديدة الحساسية والتى تغلق العين بسرعة كبيرة عند وصول أى خطر اليها ، وهذه الحركة لا تعتمد على المخ ، ولكنها ذاتية فى عضلات الجفون ذاتها ، لتكون الاستجابة لمجابهة الأخطار السريعة .

٤ - **المهبل :** فى البالغات يتركب من طبقات تراكمية Stratified Epithium يحول دون اختراق البكتريا والفيروسات والفطريات عن طريق الوطء أو الأيدى ، أو الملابس الملوثة ، أو غير ذلك .

وتقرر أن الخلل فى هذه الدفاعات كعدم سلامة الجلد ، أو الأنف أو الفرج ، أو العين يهيىء صاحبه لقبول العدوى أكثر من نظيره الصحيح ، والذى تكون كفاءته فى صد هذه الأخطار فى كامل قوتها .

ثانيا : الدفاعات الفسيولوجية ، وتتمثل فى :

١ - بالنسبة للجهاز الهضمى مثلا فانه يحتوى على أنواع من البكتريا المعايشة المتكافلة Comfausnls والتى تساعد على تفتيت الغذاء

وهضمه وامتصاصه ، ولهـا دور أسـاسى فى قتل البكتريا المرضية ، والقضـاء عليهـا ، وهذه تعيش فى الفم ، والأمعـاء الغليظـة ، وتسمى كذلك Soprophytes

٢ - تعيش فى المهبـل بكتريا التخمـر Lactobacillus وهـذه بكتريا نافعـة متكافلة تحـول دون تكاثر البكتريا الضـارة ، كما أنهـا تجعل الوسط حمضيا مما يكون له مفعول قاتل للبكتريا الضارة .

ولذا فان الفتيات الصغيرات تقـل عندهن هذه المتكافلات مما يجعلهن عرضة لاقتناص كثيرا من العدوى .

٣ - يوجد فى المعـدة حمض الايدروكلوريك القوى والذى يقتـل معظم البكتريا الواصـلة مع الطعـام والشراب ، وكذلك توجد الأنزيمات الهاضمة والتى لها دور كبير فى قتـل البكتريا .

كما يوجد المخاط فى القصبة الهوائية ، والممـرات التنفسية ، والذى يحتوى على انزيمات قاتلة .

ثالثـا : الدفاعات الكيماوية الوقائية :

١ - الحمى التى ترتفع فيهـا درجة حـرارة الجسم الى الدرجة التى لا تناسب الكائن الحى فيهلك ويكنس من الدم والأنسجة .

وتحدث هـذه الحـرارة بفعـل :

- سموم البكتريا المنفجرة أثناء عملية الغزو .
- بتأثير الكرات الدموية البيضـاء المحطمة ، ونفايات الأنسجـة من خلايا جسمية مقتولة Tissue Depris

وهـذه الأشياء تنبـه مراكز الحـرارة فى المخ ، فترتفع درجة حرارة الجسم ، ولذلك فهى تسمى مولدات الحرارة -

Endogenous Pyrogens

٢ ـ اللهب (الالتهاب) Inflommation

ان وجود الميكروب يرخى الأوعية الدموية ، فتتسع الفتحات بين خلايا هذه الأوعية ، فتزداد النفاذية ، وتصب المواد المضادة للبكتريا من داخل الوعاء الدموى الى الأنسجة التى بها الميكروب لتهاجمه وتقاتله .

كما أن البكتريا نفسها تفرز مواد خاصة Chemotactic Substances والتى تجذب كرات الدم البيضاء Polymorphonuclear Leucocytes وهذه الأخيرة تبتلع خلايا البكتريا .

ولكن هناك بعض أنواع البكتريا يعيش داخل خلايا الجسم محتميا فيها ، وهذا النوع قد سخر الله تعالى له خلايا خاصة كبيرة من جنس الكرات الدموية البيضاء Macrophages وهذه تبتلع هذه الخلايا بما يعيش داخلها من ميكروبات .

ومن هذا النوع من البكتريا التى تفضل المعيشة داخل خلايا الجسم ، ميكروب التدرن ، والجذام ، والسيلان ، والالتهاب الرئوى وكل الفيروسات .

ومن الملاحظ أيضا فى هذا الباب (الدفاعات التركيبية، الفسيولوجية والكيميائية) أنها تختلف من شخص لشخص ، ومن جنس بشرى لجنس آخر ، فاذا تكاملت هذه العوامل ، وعملت بغاية كفاءتها فان العائل (الجسم المهاجم بالميكروب) يخرج من هذه المعركة سليما معافا ، وعلى الجانب الآخر لو كانت هذه الدفاعات مختلة ، لتغلب العدو المهاجم ، واستسلم الجسم للمرض .

ولكن الميكروب اذا تخطى هذه الاستحكامات ، فانه يواجه بنظام دفاعى آخر يفوق فى دقته وتخصصه ما سبق ذكره .

ونحن بتوفيق تعالى وعونه نلخص هذا الموضوع فيما يلى :

المناعة المتخصصة (الجهاز المناعى)

IMMUNOLOGICAL SYSTEM

والقصة كما يلى : يدخل الميكروب الغازى الى تيار الدم ، والأنسجة بعد أن يكون قد نجح فى كسر الدفاعات السابقة ، هذا الميكروب يفرز مادة بروتينية غريبة عن الجسم تسمى Antigen

هذه المادة تثير الجسم للدفاع ، فتبدأ الهجمة الأولى من خلايا الجسم ، وتسمى بالاستجابة المبدئية الأولية Primery Antibody Response وتحدث بافراز مواد مضادة لهذه الكائنات الغازية وتسمى هذه المواد بالترياق Antibodies ، وهذه المواد متخصصة لكل نوع من البكتريا ، ولها ذاكرة قوية بحيث انها تتعرف على هذا الميكروب فتقاتله ولو جاء بعد عشرات السنين .

ومن هذا النوع من المناعة ابتكر العلماء التطعيم ، واللقاح للتحصين ضد بعض الأمراض فى المستقبل القريب أو البعيد .

والذى يقوم بافراز هذه المواد Antibodies الترياقية هى خلايا الليمف المولدة فى نخاع العظام (نقى العظام) Blymphocytes والتى تفرز مادة بروتينية تسمى الجلوبيولين ، وهو محور بطريقة معينة ليصطاد سموم الميكروب وهو يماثل الضبة مع المفتاح بحيث يكون لكل سم بكتيرى ترياقه الذى يماثله ، ويمكنه من ابطاله .

وهناك خلايا ليمفاوية أخرى تفرز بواسطة الغدة التيموسية Thymous Gland ووظيفتها تحليل الميكروب وقتله وتسمى هذه العملية : المناعة بواسطة الخلايا . Cell Mediated Immunity

ويستمر تكون الترياق ـ فى الاستجابة المبدئية الأولية لعدة شهور ، ثم يختفى من تيـار الدم ، وتكون النتيجـة تكون خلايا عالية التخصص للتعـرف على سموم هـذا النوع من البكتريا والتعـامل معـه ، وتسمى هـذه الخـلايا B-lymphocytes ويبدأ ظهـور الترياق بعد حوالى أسبوع أو عشـرة أيام فى أول اصـابة ، وتستمر المنـاعة لسنين طويلة .

فاذا طـرأت عدوى من نفس النوع ، فان هـذا الجلوبيولين المناعى Specific Antibodies يظهـر فى الدم بعد فترة قصـيرة جدا لا تزيد عن ساعات قليـلة ، ويستمر هـذا المفعول لمدة أطول من الاصابة الأولى .

وتسمى الاصـابة الثانية : بالاستجابة الثانوية المنـاعية

Secondary Antibody Response

وتعـزى هـذه السرعة فى تكوين الترياق Antibodies الى الذاكرة المنـاعية Immunological Memmory والتى نتجت من الاصـابة الأولى .

وقد عـرف أن الاصـابة بالجـدرى ، والحمى الصفراء ، والدفتيريا تعـطى منـاعة ، ووقـاية مـدى الحيـاة ، ولـو فحصنا عينـة من دماء هـؤلاء لوجـدناه يحـوى كمـا هـائلا من الجـلوبيولين الـواقى فى أمصـالهم ـ ولـو بعـد عشرات السـنين ..

والتـرياق أنـواع :

١ ـ IMMUNOGLOBULIN M. (IGM)

وهـذا النوع يظهـر فى الاصـابة الأوليـة (بكتريا ـ وفيروسات) ويختفى بسرعـة من الدم ، ولأنـه ذو وزن جزيئى عـال فهـو لا ينفـذ من المشـيمة للجنـين ، فـلا يحمى الجنـين في الاصـابة الأولية ،وهـذا

الترياق لـه خمسـة وجـوه ، كـل وجـه قـادر على ابطـال جزيئى من سـم البكتريا Antigen

٢ - IMMUNOGLOBULIN G (I9G)

ويظهـر فى الاصـابة الثانيـة ، ولهـذا فـانه يستمر فى الدورة الدمـوية ويمـر خـلال المشـيمة للجنـين لأن وزنـه الجزيئى منخفض، وهـذا النـوع هـو الذى يحمـله الجنـين معـه من بطـن أمـه ، ويستمر معـه فى الشـهور الأولى يحميـه غـوائل الأمـراض ، وتسمى هـذه المنـاعة الجاهـزة المـأخوذة من الأم Passive Immunity

ولجزيئى الترياق ثلاث وجـوه قـادر على الاشتباك بثلاثة جزيئات من سـموم الطفيليات الغـازية .

٣ - IMMUNOGLOBULIN A (I9A)

وهـذه لهـا وزن جزيئى ممـاثل للسابقة ، فهـو ينفـذ من الأوعية الدمـوية الى الأسطح المخاطية لأجهزة التنفس ، والهضـم ، والتناسل، ولـه دور هـام فى الوقـاية من الاصـابة السـطحية لهـذه الأجهـزة Secretory Type of Immunoglobulins

وهـذا هـام جـدا حيث أن هـذه الأغشـية لا تصلها المضـادات الحيـوية الا بالكاد وفى التركيزات العالية، فتكـون البكتريا فى مأمـن من أذى المضـادات ، فيعمـل هـذا الترياق على التعـامل مع البكتريا . كمـا أنـه هـام جـدا فى عـدوى الفيروس والذى قـد يهـاجم هـذه الأغشـية ، ولا يتعمق داخـل الجسـم ، فـلا يناسبه الا هـذا النـوع من الترياق .

فدور هـذه الأجسـام المناعيـة مقـاوم للبكتريا من حيث معـادلة سمومها ، أمـا فى حـال الفيروس الذى يعيش داخـل خليـة الـكائن العـائل ، فانهـا يقتصر نشاطها على مرحـلة دخـول الفيروس الجسم، وسريانه فى الدم قبـل أن يختـرق الخـلايا ويكمن فيهـا .

ولنضرب فى هـذا الموطن مثـالا لتأكيد أنـه ليس كـل ميكـروب غـاز يوجـد حـالة مرضية مهمـا كانت درجـة خطـورته ٠

فنحن اذا أدخلنـا المـادة المفـرزة السـامة لميكروب التـدرن الى الجسـم عن طـريق التطعيـم Protein Extract of Tbacimlus Antigen فاننـا نشـاهد تكـون ورم جـاف فى مكـان الحقـن يظهـر فى مـدى ٤٨ سـاعة ويسـتمر لعـدة أيـام أو أسـابيع ، وبفحص مكونات هـــذا الـورم نجـد أن من ٨٠ ـ ٩٠٪ من خـلاياه من الخـلايا الليمفـاوية المناعيـة المضـادة لبكتريا السـل Sensitised Lymphocytes ، والباقى وهـو من ١٠ ـ ٢٠٪ خـلايا أكلـة كبيـرة Macrophages

ومعنـاه أن الجسـم قـد التقـط ميكروب السـل فى فتـرة سابقة فتكونت فى جسـمه هـذه الخـلايا المناعيـة ، وكـان الجسـم من القوة والمنعـة بحيث جـابه العـدوى القديمـة وانتصر عليهـا ، ولهـذا لـم تظهـر على الشخص أى عـلامات مرضية ، بـل ربمـا لم يشعر بهـذه الواقعـة ٠

وتكـوين هـذه المنـاعة والحصـانة ، قـد تحـدث عن طـــريق اصـابة فعليـة (قـد يمـرض فيهـا الانسـان ، وقـد لا يمـرض ولا يشـعر بهـا وتسـمى الحـالات دون الاكلينيكية) ، أو قـد تحـــدث صناعيا عن طـريق تطعيمنـا الأشـخاص بميكروبات حيـة موهنـة ، أو ميتـة ، أو بحقـن مفرزاتهـا السـامة بجـرعات معينـة ، بحيث تثيـر جهـاز المنـاعة هـذا وتنبهـه وتنشـطه بدون أن تحـدث حـالة مرضـية ٠

وتسـمى الحصـانة المكتسبة من دخـول الميكروب مع حـدوث مـرض ، أو العـدوى دون الاكلينيكية والتي لا تظهـر على الشـخص

فيهـا أعـراض مرضـية ـ تسـمى : بالمنـاعة النشـطة المكتسبة طبيعيا)
Natural Aquired Active Immunity

فهى نشـطة لأنهـا تقـوى وتتضاعف تبعا لقـوة الميكروب المهاجم.
وهى طبيعيـة لأنهـا تنشـأ عن طـريق خـلايا الانسـان ذاتـه فـلا تعطى لـه من الخـارج .

ومنـاعة التطعيـم تسـمى بالمنـاعة الصناعية :
Artificial Active Aquired Immunity

وتسـمى هـذه الطعـوم Toxoides أى السـموم المعالجة المروضة والتى تولـد فى الجسـم الترياق Antitoxins

وهناك نـوع ثالث : وهى المنـاعة الخـاملة Passive Immunity
وهى التى يأخذهـا الجنـين فى بطـن أمـه عن طـريق دمهـا ، والذى يحتـوى على كـم كبـير من مضـادات السمـوم Antitoxins
والخـلايا الليمفـاوية المولفـة Sensitised Lynplocytes وهـذا النـوع لا تزيـد فتـرة عمـله عن سـتة شـهور من عمـر الطفـل ، حيث تكـون هـذه الأجسـام والخـلايا قـد تلاشت من دمـه .

وقـد قـلد العلمـاء هـذه العمليـة : فيحقنـون بعض الحيـوانات بميكروبات بعض الأمـراض لتتـكون فى دمائهـا مضـادات البكتـريا والفيروسات ، ثم يسـحبون دمـاء هـذه الحيوانات ، ويحصلون عـلى هـذه المناعيـات ويركزوها فى حقـن خاصـة لتكون منـاعة ومضادات جاهـزة لبعض الأمـراض الشـديدة السريعة التى تتطلب انقاذا سريعـا لخطورتهـا علي الحيـاة مثـل : الدفتريا ، فيحقنـون المصـاب بالمصـل الواقى والمعالج Diphtheretic Antitoxin Serum ولا يمكن فى مثـل هـذه الحـالات الانتظـار لنشـاط دور المنـاعة الذاتي ، والا هـلك الانسـان قبـل تكوينـه .

ويقتصر دور المناعة بهذه الطريقة على كمية الوحدات المعطاة للمريض ، فهى تكون فقط فى ساعات الخطر .

وبالمثل يعطى الأطفال المعرضون لشلل الأطفال ، والحصبة هذا النوع من الحصانة حتى لا تستفحل الفيروسات وتمرضهم .

فاذا انتقلنا من الميكروبات الى الفيروسات فاننا سوف نجد أنها لا تعانى من خطوط المناعة السابقة لأنها :

- مختلفة السمية فى الفصيلة الواحدة ، وفى النوع الواحد ، فمثلا فيروس الانفلونزا ينقسم الى ثلاث مجموعات ، كل مجموعة أنواع كثيرة ، وكل نوع له تأثير مختلف عن نظيره .

كما أنه يغير من سميته من وقت لآخر ، ففى كل سنة توجد فصائل لها سمية مختلفة ، وأسرع الفيروسات تغييرا هو فيروس الأيدز AIDS فكل جيل منه يختلف عن سابقه فى الأثر السام ، وتسمى هذه : بالظاهرة السمية المتغيرة :

Antigenic Drift ، وفيروس البرد Common Cold

له أكثر من مائة نوع يختلف كل منها عن الآخر فى تأثيره السام .

ولهذا فان الجلوبيولين المناعى IgM, IgG, and IgA. تكون محدودة الفعالية لعدم قدرتها على ملاحقة هذا التغير السريع ، ولأن عملها يكون خارج الخلايا ، فى حين أن الفيروس سرعان ما يستقر داخل الخلايا .

ولكن الله تعالى جلت حكمته : سخر لهذه الأحياء الخطرة جيشا اعتراضيا سريع الحركة وهو غير متخصص فهو يعمل ضد جميع الفصائل وتسمى هذه المواد (المتدخلات) Interferons وتفرز من جميع خلايا الجسم ، لا تقتصر على نخاع العظام

أو خلايا الليمف أو خلايا الدم البيضاء ، بل تفرز من الخلايا التى يهاجمها الفيروس وهذه المواد Interferons تفرز من الخلايا الجسمية بتأثير وتنبيه الحمض النووى للفيروس ذاته .

اذن هذه (المتدخلات) تعمل ضد جميع فصائل الفيروسات بمعنى أنه اذا أصيب الانسان بفيروس مثل Entero Virus فانه يصير حصينا ضد Rubella وهى الحصبة الألمانى الفيروسية . ذلك لأن هذه المواد لا تحارب الفيروس ، كما يحدث فى حال البكتريا التى يبطل نشاطها (الترياق ـ الجلوبيولين المناعى) ولكنها تحصن الخلايا الصحيحة ضد غزو الفيروس ، وتقاومه وتقضى عليه داخل الخلية أيضا .

كما أنه اذا كانت مادة (الترياق Antibodies) تظهر فى الدم ببطء عقب العدوى ، ودخول الميكروب الى الجسم ، فان المتوسطات Interferons تظهر فى الدم بعد ساعات قليلة من دخول الفيروس الى الجسم ، وتظل تقاومه طيلة وجوده ، فاذا اختفى الفيروس ، اختفت مادة الانترفيرون سريعا ، فالمقاومة مناسبة تماما لأسلوب الفيروس الغازى .

وهكذا فقد جعل الله تعالى لكل خطر ما يناسبه من وسائل المقاومة والدفاع ، بحيث لا ينتج من هذه المعركة بين الكائن الغازى والخلية الجسمية الا ما قدره الله تعالى .

وبعد عرض الأحاديث الشريفة ، وما فسره جمهور المحدثين من أن العدوى حقيقة ، ولكنها لا تؤثر الا بارادة الله تعالى ، فهى سبب عادى لا يستلزم وجودها وجود الداء ، وظهور أعراض مرضية .

وبعد أن استعرضنا الحقائق الطبية وهى تتلخص فى :

ان العدوى (الميكروبات ـ الفطريات ـ الفيروسات) قد تأخذ طريقها الى جسم الصحيح ، ولكن هناك عوامل عديدة مثل :

١ ـ كون الكائن الغازى ضارا بالعائل الذى يحل فيه أم لا ؟

٢ ـ هل سيهاجم العائل ، أم سيهادنه ويتوازن معه فيحيا حياة تعايشية تكافلية .

٣ ـ أم هل سيهزم بوسائل الدفاع الجسمية الخارجية والداخلية أم ينتصر ويتغلب ويسبب حالة مرضية .

كما أن هناك عوامل خاصة بالشخص المصاب يتوقف عليها نجاح الميكروب أو هزيمته واندحاره ، واكتساب الجسم مناعة قد تمتد لطول العمر .

من هذه العوامل :

العامل الشخصى ـ والسن ، والجنس ، والوراثة ، وحالة الجسم الهرمونية ، والصحية : وغيرها .

وحالة الجلد ، ودفاعات الجهاز التنفسى والهضمى ، والتناسلى والعينى ، ومدى سلامة هذه الأعضاء ، وما فيها من نظم دفاعية فسيولوجية ، وتشريحية ، وكيماوية مما يؤثر على وجود المرض أو عدمه .

كما أن هناك الاستحكامات المناعية العالية التى أوجدها الله تعالى فى خلايا الجسم ، وفى الدم ، وفى خلايا الليمف وخلايا العظام .

من هذا يتبين لنا أن العدوى حقيقة ، ولكن التأثير لا يكون الا بإرادة الله تعالى ومشيئته ، فلو أراد الله تعالى للانسان النجاة والسلامة من المرض والوباء مع وجود السبب لأحكم الله هذه

الدفاعات ورفع كفاءتها بحيث تقتل الميكروب الغازى ، ويسلم الجسم من شر هذه الهجمة ، والدليل على ذلك أنه كم من مخالط للمرض بأمراض معدية لا يمرض ، كما قال ﷺ (فمن أعدى الأول) .

ولو أراد الله تعالى للانسان أن يصاب ويمرض لنجح الميكروب أو الفيروس فى أى مرحلة من مراحل هجومه فى اختراق وسائل دفاع الجسم ، وهكذا يستسلم الجسم للمرض .

لقد قال تبارك وتعالى « **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** » النحل ـ ٤٠ ، وقال تعالى « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد** » فصلت ـ ٥٣ ، وقال تعالى « **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** » الذاريات ـ ٢١ ، وقال تعالى « **إن ربى على كل شىء حفيظ** » هود ـ ٥٧ ، وقال تعالى « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** » الرعد ـ ١١ .

وحفظ الله تعالى لخلقه من جميع الأخطار جلت أم لطفت، وفى كل الأحيان الى أن تأتى ساعة الأجل ، ولا يحدث للانسان ولا لغيره الا ما أراد الله تعالى .

(قال عكرمة عن ابن عباس (يحفظونه من أمر الله) قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فاذا جاء قدر الله خلوا عنه . وقال مجاهد ما من عبد الا له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والانس والهوام ، فما منها شىء يأتيه يريده الا قال له : الملك وراءك ، الا شىء أذن الله فيه فيصيبه) ذكره ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم (٥٠٣/٢) .

وصل اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وسلم والحمد لله رب العالمين